ماذا يمكننا أن نتعلّم من أوّل أسقف أرثوذكسي في أميركا؟

المتروبوليت سابا

"أنا عربيّ بالولادة، يونانيّ بالدراسة، أميركيّ بالإقامة، روسيّ بالقلب، وسلافيّ بالنفس." (القدّيس روفائيل أسقف بروكلين)

لقد ساهم كثيرون من الخدّام القدّيسين المخلصين والأمناء في زرع بذور الأرثوذكسيّة في أميركا، لكن قلّة منهم كانوا مهيّئين لهذه الخدمة، كما كان القدّيس روفائيل أسقف بروكلين. وكما توحي العبارة الواردة أعلاه، جَسّد القدّيس روفائيل الروح الإنجيليّة والبشارية التي كانت مطلوبة في زمنه، والتي نحن بأمسّ الحاجة إليها اليوم فيما نحيي الذكرى المئتين والخمسين لتأسيس أُمّتنا.

وقبل أن نغوص في تأمل شخص القدّيس روفائيل ومثاله، أودّ أن أشير إلى صورة فوتوغرافيّة لفتت انتباهي في قاعة كاتدرائيّة القدّيس نيقولاوس في بروكلين، نيويورك. التُقطت هذه الصورة أثناء تكريس كاتدرائيّتنا الحاليّة، في شارع "ستيت" سنة ١٩٢٠، وتظهر فيها حشودٌ غفيرة مجتمعة خارج الكنيسة، فيما واجهة الكاتدرائيّة مغطاةً بكليتها بأعلام الولايات المتّحدة الأميركيّة فقط، لا بمزيج من الأعلام الأميركيّة وأعلام البلدان التي جاء منها المهاجرون آنذاك، كما قد يتوقّع المرء اليوم. لقد تركت هذه الصورة أثراً عميقاً في نفسي، لأنّها تعبّر بوضوح عن أمانة المهاجرين الأوائل للبلد الذي استضافهم (أميركا). لقد أحبّوا المدن والقرى والعائلات التي تركوها وراءهم مضطرين، لكنّهم أدركوا أنّهم جاؤوا ليستقرّوا في أميركا. وأرادوا أن يكونوا شركاء كاملين في الوطن الذي تبنّوه، مع المحافظة في الوقت نفسه على إيمانهم الأصيل وتقاليدهم المقدّسة وبلدانهم الأصلية.

هذا هو مناخ الأبرشية حين وصل القدّيس روفائيل ، وكان يومئذٍ الأرشمندريت روفائيل هواويني، إلى نيويورك سنة ١٨٩٥.

قبل وصوله إلى الولايات المتّحدة، عاش القدّيس روفائيل في عدد من مراكز الأرثوذكسيّة المهمّة، من دمشق مسقط رأسه، إلى القسطنطينيّة وجزيرة خالكي حيث درس اللاهوت، إلى كييف وموسكو حيث تابع دراساته العليا. من خلال الأسفار الواسعة وإتقانه لغات عديدة، باستعمالاتها اليوميّة والليتورجيّة، أعدّه الله بعنايته الإلهيّة إعداداً

فريداً للرسالة التي كانت تنتظره في هذه الأرض الجديدة، من تأسيس رعايا للمهاجرين الأرثوذكس الوافدين حديثاً من خلفيّات إثنيّة متنوّعة.

ومع أنّ دعوته الأساسيّة كانت خدمة المهاجرين الناطقين بالعربيّة القادمين من سوريا الكبرى، (من سوريا ولبنان والأردن وفلسطين حاليّاً)، وذلك من خلال الإرساليّة السوريّة العربيّة التي أنشأتها الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة، غير أنّ قديسنا روفائيل صار شخصيّة محترمة ومحبوبة بين المهاجرين الأرثوذكس عموماً، ولا سيّما في منطقة نيويورك. وقد حملته جهوده البشارية الدؤوبة إلى مختلف أنحاء الولايات المتّحدة وكندا والمكسيك. فكان يزور المؤمنين حيثما وجدوا، ولو في مناطق نائية، فيعمّدهم ويبارك زيجاتهم ويقيم الجنائز للراقدين منهم. كما كان يشجّع المؤمنين، في كل مكان يزوره، على تأسيس رعايا جديدة، ويَعِدهم بإرسال كهنة إليهم متى التزموا بهذا العمل المقدّس.

ومع نموّ الإرساليّة الأنطاكية، أدرك القدّيس تيخُن، رأس الأبرشيّة الروسيّة في أميركا الشماليّة آنذاك، [كان الحضور الأرثوذكسي الكنسي الوحيد آنذاك للميتروبوليا الروسية] ضرورة أنّ أن يُرسم الأرشمندريت روفائيل أسقفاً، للإشراف على الرعايا العربية الفتيّة المنتشرة في أنحاء الولايات المتّحدة، وذلك بموافقة كلٍّ من بطريرك موسكو وبطريرك أنطاكية. وهذا ما صار، إذ رُفِّع القدّيس روفائيل إلى الدرجة الأسقفيّة في كاتدرائيّة القدّيس نيقولاوس في بروكلين، نيويورك، ليصبح أوّل أسقف أرثوذكسي-، من أيّ خلفيّة كانت، يُرسم على أرض الولايات المتّحدة الأميركيّة. حدثت رسامته في الثالث عشر- من آذار سنة ١٩٠٤. والحقيقة أنّه لولا غيرته الرسولية وتفانيه الثابت في خدمة المؤمنين، لكان كثير من المهاجرين الأرثوذكس قد ذابوا دينيّاً في محيطهم الجديد، وهم يسعون إلى تحقيق الحلم الأميركي في وطنهم الجديد.

إنّ قدرة القدّيس روفائيل على التنقّل بين الثقافات المختلفة والاستفادة من أفضل ما في التقاليد الأرثوذكسيّة تجعله نموذجاً صالحاً لعصرنا. فقد كان قادراً على مخاطبة الناس بلغتهم وفهم عاداتهم وتقاليدهم بفضل خبراته الحياتيّة المتنوّعة، وفي الوقت نفسه كان يشجّعهم على التأقلم مع وطنهم الجديد. وقد تمسّك بتعليم الكنيسة وحما رعيّته من الذئاب الخاطفة، وفي الوقت عينه تفاعل بحكمة مع واقع الحياة الأميركيّة ومتطلّباتها من دون أيّ مساومة على الإيمان.

فماذا يمكننا أن نتعلّم من حياة القدّيس روفائيل ونحن نحتفل بمرور مئتين وخمسين عاماً على التجربة الديمقراطيّة الأميركيّة؟

علينا أن نكون ممتنّين بعمق لشخصيّات مثل القدّيس روفائيل الذين زرعوا بذور الأرثوذكسيّة في أميركا. وكما ينظر المواطنون الأميركيّون إلى الآباء المؤسّسين لأمّتهم وإلى التضحيات التي قدّموها لبناء وطن أقوى وأفضل، كذلك ينبغي لنا أن ننظر إلى "آبائنا المؤسّسين" للأرثوذكسيّة في أميركا، فنتعلّم من شهادتهم ونقتدي بمثالهم. كما ينبغي أن نواصل رعاية ما نمى من أعمالهم الأولى، فيما نرحّب أيضاً بكلّ الذين يعتنقون اليوم الإيمان الأرثوذكسي المقدّس عن اقتناع واختيار.

وكما وُصفت أميركا بأنّها "بوتقة انصهار" للشعوب والثقافات، كذلك يجمع الإيمان الأرثوذكسي- في وحدة واحدة جميع الذين يسعون إلى اتّباع يسوع المسيح داخل فلك الكنيسة، حيث "لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ، لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ، لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ" (غلاطية ٣: ٢٨). له المجد والكرامة إلى أبد الآبدين.

نُشر هذا المقال في إطار مبادرة "أميركا في عامها المئتين والخمسين: الأرثوذكسيّة في وطن جديد"، وهي مبادرة إعلاميّة مشتركة بين صحيفة "الأرثوذكس أوبزرفر" ودائرة العلاقات الأرثوذكسيّة والمسكونيّة والعلاقات الدينية التابعة لرئاسة أساقفة أميركا اليونانيّة الأرثوذكسيّة، تكريماً لإسهامات المسيحيّة الأرثوذكسيّة وخبرتها في أميركا، واحتفاءً بالذكرى المئتين والخمسين لتأسيس الولايات المتّحدة الأميركيّة.